جامعة تكريت/ كلية التربية للعلوم الانسانية

قسم اللغة العربية

المرحلة : دكتوراه /لغة

المادة: مناهج لغوية حديثة

عنوان المحاضرة : المنهج التاريخي

الاستاذ الدكتور : قاسم خليل إبراهيم

العام الدراسي ٢٠٢٥-٢٠٢٦

تعريف المنهج التاريخي وأهدافه:

تعريف المنهج التاريخي:

المنهج التاريخي :هو ذلك الفرع من اللسانيات الذي يهتم بدراسة التغيرات التي تطرأ على اللغة (أو عائلة لغوية) عبر مدى زمني طويل، قد يمتد لقرون أو آلاف السنين. لا يقتصر اهتمامه على وصف هذه التغيرات فحسب، بل يسعى إلى تفسير أسبابها وكيفية حدوثها، واستنباط القوانين التي تضبط هذه التحولات. بمعنى آخر، هو الدراسة العلمية لتطور اللغة عبر الزمن.

أهداف المنهج التاريخي:

١. تتبع التطور الزمني:

تتبع تطور اللغة من حالة قديمة إلى حالة أحدث. مثال على ذلك دراسة تطور اللغة العربية من مرحلتها الأولى في النقوش والنصوص الجاهلية، مرورًا بلغة القرآن والشعر في صدر الإسلام، ثم ازدهارها في العصر العباسي، وصولاً إلى أشكالها اللهجية والمعيارية الحديثة.

٢. المقارنة لإثبات القرابة:

مقارنة اللغات المنحدرة من أصل مشترك (مثل مقارنة العربية والعبرية والآرامية) لإثبات انتمائها إلى عائلة لغوية واحدة (كالعائلة السامية) وإعادة بناء صورة مقاربة للغة الأم التي انحدرت منها.

٣. فهم آليات التغير: فهم آليات وكيفية حدوث التغير اللغوي في مختلف المستويات: الصوتي (كإبدال حرف بآخر)، والصرفي (كتطور أنظمة التصريف)، والنحوي (كاختلاف التراكيب)، والدلالي (كتحول معاني الكلمات).

٤. **استخلاص القوانين العامة:** صياغة قوانين عامة تحكم التغير اللغوي، وخاصة الصوتي منها، مثل قانون غريم وقانون فيرنر في عائلة اللغات الهندية الأوروبية، والتي تثبت أن التغير اللغوي ليس عشوائيًا بل يخضع لأنماط منتظمة.

يمثل المنهج التاريخي، بهذه الأهداف، الجانب الديناميكي للغة، مكملًا للدراسة التزامنية التي تدرس اللغة في لحظة زمنية ثابتة كما لو كانت نظامًا ساكنًا. فإذا كانت اللسانيات التزامنية تجيب على سؤال (كيف تعمل اللغة الآن؟)، فإن اللسانيات التاريخية تجيب على سؤال (كيف أصبحت اللغة على ما هي عليه الآن؟).

النشأة والتطور التاريخي للمنهج:

لم ينشأ المنهج التاريخي في اللسانيات من فراغ، بل كان نتاجًا لتراكم معرفي وظروف فكرية واجتماعية:

١. الجذور الأولى والدراسات التقليدية: فالمنهج التاريخي في **الدرس اللغوي العربي** يمكن إرجاع الاهتمام بالتغير اللغوي إلى **علماء اللغة العرب** القدامى. ففي التراث العربي، عرفت اللسانيات العربية منذ وقت مبكر توجهًا تاريخيًا، تجلى في اهتمام اللغويين العرب بجمع اللغة من أفواه العرب، وتقنينها قبل أن يصيبها التغير والانحراف. وقد تناول العلماء ظواهر التطور الدلالي والصوتي بتفصيل، ومنهم:

١. الأصمعي في جمع اللهجات.

٢. **الخليل وسيبويه في وضع قواعد العربية قبل انتشار اللحن.**
٣. **ابن فارس في كتابه "الصاحبي" الذي يعرض لفكرة تطور الدلالة.**
٤. **ابن جني في "الخصائص" الذي يعد من أوائل من نصّ على مبدأ التغيّر اللغوي.**

و نجد اهتمامًا بظاهرة (اللحن)الذي يدخل على اللغة، ومحاولات توحيد القراءات القرآنية التي كشفت عن اختلافات في اللهجات. كما أدرك علماء مثل **ابن جني في كتابه (الخصائص)** فكرة التطور اللغوي وعلاقة اللغة بالطبيعة البشرية، حيث قال: (إنَّ الكلامَ لا يزالُ يَنْتَقِلُ مِن حالةٍ إلى حالةٍ، وَمِنْ صِفَةٍ إلى صِفَةٍ).

٢. المدخل المقارن والشرارة الأولى: كانت البداية الحقيقية للمنهج التاريخي الحديث مع نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر في أوروبا. وقد ساهم في ذلك الاكتشافات الاستعمارية التي عرّفت الأوروبيين على لغات قديمة مثل **السنسكريتية** في الهند. في عام ١٧٨٦، ألقى القاضي البريطاني السير **ويليام جونز** محاضرة شهيرة في كلكتا، لاحظ فيها تشابهًا مذهلاً في مفردات وقواعد اللغة السنسكريتية مع اللغات اليونانية واللاتينية، وافترض وجود لغة أصل مشترك لها جميعًا، ربما لم تعد موجودة. كانت هذه الملاحظة هي الشرارة التي فتحت الباب أمام الدراسات المقارنة المنهجية.

٣. عصر اللسانيات التاريخية المقارنة (القرن التاسع عشر): شهد هذا القرن تطور المنهج ليصبح علمًا دقيقًا بمفرديه ومنهجياته. قام علماء اللغة بمقارنة منهجية للغات الهندية الأوروبية، ووضعوا أسس إعادة بناء اللغة الأم (Proto-Indo-European).

تميزت هذه الفترة بظهور عدد من الرواد:

· **فرانز بوب** (Franz Bopp): في عمله المؤسس "نظام تصريف السنسكريتية مقارنة باللغات الأخرى" (١٨١٦)، أثبت بوب بشكل منهجي القرابة بين اللغات الهندية الأوروبية (السنسكريتية، اليونانية، اللاتينية، الفارسية، الجرمانية) من خلال مقارنة أنظمة التصريف فيها، معتبرًا أن أوجه الشبه لا يمكن تفسيرها بالصدفة أو الاقتراض.

· **يعقوب غريم** (Jacob Grimm): قدم غريم، في عمله "قواعد اللغة الألمانية" (١٨١٩-١٨٣٧)، وصفًا دقيقًا للتحولات المنتظمة للأصوات الساكنة من اللغة الهندية الأوروبية الأم إلى اللغات الجرمانية، وهو ما عُرف لاحقًا بـ "قانون غريم" (Grimm's Law)، الذي يصف، على سبيل المثال، تحول الأصوات الانفجارية [p], [t], [k] إلى أصوات احتكاكية [f], [θ], [h].

· **كارل فيرنر** (Karl Verner): في عام ١٨٧٥، قدم فيرنر تعديلًا على قانون غريم، عُرف بـ "قانون فيرنر"، موضحًا أن بعض الاستثناءات في قانون غريم تخضع لقوانين صوتية أخرى مرتبطة بموقع النبرة في الكلمة الهندية الأوروبية الأم. كان قانون فيرنر دليلاً قويًا على أن التغير اللغوي خاضع لقوانين صارمة ولا مكان للصدفة فيه، مما عزز الموقف العلمي للمنهج.

<u>أدوات وأساليب المنهج التاريخي:</u>

يعتمد المنهج التاريخي على مجموعة من الأدوات والأساليب العلمية الدقيقة للوصول إلى نتائجه، وأهمها:

١. المنهج المقارن (The Comparative Method):

هو العمود الفقري للمنهج التاريخي وأقوى أدواته. يقوم على مقارنة منهجية لمجموعة من اللغات التي يُشتبه في انحدارها من أصل مشترك، من أجل:

· **إثبات القرابة:** إثبات أن هذه اللغات تنتمي إلى عائلة لغوية واحدة وليست متشابهة due للاقتراض.

· **إعادة بناء اللغة الأم:** استنتاج خصائص اللغة الأم (الصوتية، والصرفية، والمعجمية) التي لم تُسجل كتابيًا.

· **تحديد مسار التطور:** تحديد كيفية تفرع اللغات من أصلها والتحولات التي حدثت لكل منها.

آلية العمل: يجمع الباحث قائمة من المفردات الأساسية والمتشابهة دلاليًا وصوتيًا من اللغات المقارنة (مثل كلمات الأعداد، أجزاء الجسم، العلاقات الأساسية)، ثم يقارن بينها ليكشف عن التناسق في التغيرات الصوتية. على سبيل المثال، مقارنة كلمة "أب" في العربية (أب)، العبرية (أَف)، والسنسكريتية (pitar) تظهر تناسقًا في التحول الصوتي يمكن من خلاله استنتاج الصيغة الأصلية في اللغة السامية أو الهندية الأوروبية.

٢. المنهج الداخلي أو الباطني (The Internal Reconstruction):

يستخدم هذا الأسلوب لدراسة التطور التاريخي للغة واحدة دون الاعتماد المباشر على المقارنة مع لغات أخرى. يعتمد على تحليل التناقضات والأنماط غير المنتظمة داخل نظام اللغة نفسها في فترة زمنية واحدة، ويفترض أنها بقايا أو "حفريات" لنظام أقدم. مثلاً، الاختلاف في جذر الفعل في العربية بين (كَتَبَ، كُتِبَ، كَاتِب) قد يشير إلى نظام صوتي أو صرفي (كوجود حركات معينة) كان موجودًا في الماضي وترك آثاره في هذا الاختلاف.

٣. دراسة النصوص القديمة والوثائق:

يعتمد الباحثون على النصوص المكتوبة والوثائق التاريخية (نقوش، مخطوطات، وثائق رسمية، نصوص أدبية) لتتبع تطور اللغة عبر العصور. تسمح هذه النصوص بمقارنة حال اللغة في عصور مختلفة بشكل مباشر. دراسة تطور الخطاب من الجاهلية إلى الإسلام من خلال الشعر والنثر مثال على ذلك.

٤. دراسة اللهجات:

تعتبر الاختلافات اللهجية المعاصرة بمثابة "لحظات متجمدة" من التطور اللغوي. فدراسة التوزيع الجغرافي للظواهر اللغوية (مثل نطق القاف همزة أو جيما في بعض اللهجات المصرية) يمكن أن يسلط الضوء على المسارات التاريخية لانتشار التغيرات اللغوية والعوامل الاجتماعية التي تقف خلفها.

<u>مجالات التطبيق والإنجازات الرئيسية</u>

طُبّق المنهج التاريخي بنجاح على العديد من العائلات اللغوية، وكانت أبرز إنجازاته في:

١. عائلة اللغات الهندية الأوروبية:

يمثل هذا المجال النموذج الأكمل لتطبيق المنهج التاريخي المقارن. من خلال مقارنة مئات اللغات من أيرلندا إلى الهند، تمت إعادة بناء آلاف الكلمات والقواعد النحوية للغة الهندية الأوروبية الأم، وفهم مسارات تفرع لغاتها الرئيسية مثل اللغات الجرمانية (الإنجليزية، الألمانية)، والرومانسية (الفرنسية، الإسبانية)، والسلافية (الروسية)، والهندية-الإيرانية (الهندية، الفارسية). تعتبر قوانين غريم وفيرنر من أعظم إنجازات هذا المجال.

٢. عائلة اللغات السامية:

استخدم المنهج نفسه في دراسة اللغات السامية (كالعربية، والعبرية، والآرامية، والأكادية). أدت المقارنة بين هذه اللغات إلى إعادة بناء الكثير من مفردات وأصوات اللغة السامية الأم، وفهم التطورات التي أدت إلى نشوء

اللغة العربية بخصائصها المعروفة، مثل نظام الإعراب وتطور جذور الأفعال الثلاثية. ساعدت النقوش الأكادية والكنعانية القديمة في تدعيم هذه الإعادة البناء.

٣. مجالات التطبيق داخل اللغة الواحدة:

· علم الصوتيات التاريخي: تتبع تغير الأصوات، مثل ظاهرة الإعلال والإبدال في العربية (مَقَال/ مَقَايِل، قال/ يَقُول)، أو تحول الكاف إلى تش في بعض اللهجات (كَلب/ تشلب).

· **علم الصرف التاريخي:** دراسة تطور الأنظمة الصرفية، مثل تطور نظام الإعراب في العربية واختفائه من بعض اللهجات، أو تطور أنظمة الجمع (جمع المذكر السالم، جمع التكسير) وأصولها.

· **علم الدلالة التاريخي:** تتبع تغير المعاني للكلمات عبر الزمن. مثلاً، كلمة "ساذج" التي كانت تعني "الخالص من كل شيء" في القديم، ثم تحولت إلى معنى "البسيط الطيّع" ثم إلى "قليل الفطنة أو الأحمق" في الاستخدام الحديث (اتساع ثم تضييق ثم انتقال للمعنى).

· علم النحو التاريخي: دراسة تطور التراكيب النحوية، مثل تطور أدوات الربط (أن، كي، لأن)، وأساليب النفي (ما، لا، لم)، وترتيب مكونات الجملة.

<u>الانتقادات الموجهة إلى المنهج التاريخي:</u>

رغم النجاحات الكبيرة، لم يسلم المنهج التاريخي من الانتقادات الجوهرية، التي جاءت من عدة جهات وساهمت في تطوير الفكر اللساني:

١. المنهج البنيوي (فرديناند دو سوسور):

مع ظهور البنيوية في أوائل القرن العشرين، وجه سوسور انتقادًا أساسيًا للمنهج التاريخي في محاضراته، معتبرًا أنه ركز بشكل مفرط على البعد الزمني (الدراسة التباعدية/الدياكرونية) على حساب دراسة النظام الداخلي والعلاقات التزامنية للغة في لحظة معينة. أصر سوسور على أن النظام اللغوي (Langue) هو موضوع الدراسة اللغوية الحقيقي، وهو نظام من العلاقات والعلامات المتزامنة، وأن دراسة التطور التاريخي تندرج تحت الأداء (Parole) ولا تكشف بالضرورة عن طبيعة هذا النظام الساكن.

٢. المدرسة التوليدية التحويلية (نعوم تشومسكي):

ركز تشومسكي على دراسة "الكفاءة اللغوية" (Competence) لدى المتكلم المثالي، وهي قدرة عقلية فطرية. من هذا المنظور، رأى أن المنهج التاريخي يدرس "الأداء" (Performance) عبر الزمن، وهو أمر عرضي وخاضع لعوامل خارجية كثيرة، وبالتالي فهو غير منهجي بالمعنى الذي يطرحه التوليديون الذي يبحثون في القواعد الكونية للغة. كما شكك في قدرة القوانين الصوتية الصارمة وحدها على تفسير الإبدال اللغوي والطبيعة العقلية والمعرفية للغة.

٣. محدودية المنهج المقارن:

· الزمن العميق: يصبح المنهج المقارن أقل فاعلية وأكثر تخمينًا كلما ابتعدنا في الزمن (أبعد من ١٠,٠٠٠ سنة)، حيث تتراكم التغيرات وتفقد القرائن اللغوية وضوحها، ويصعب التمييز بين التشابه due للقرابة أو due للصدفة.

· الاحتكاك اللغوي والاقتراض: يركز المنهج المقارن على التطور من أصل مشترك، لكنه قد يهمل أو يصعب عليه تفسير ظاهرة الاقتراض اللغوي المكثف والاحتكاك بين اللغات غير المتقاربة، مما قد يشوه نتائج المقارنة.

· عدم اكتمال البيانات: يعتمد على البيانات المتاحة، وغالبًا ما تكون البيانات عن اللغات القديمة ناقصة أو غير مكتوبة أصلًا، مما يؤثر على دقة الإعادة البناء.

٤. **الافتراضات المثالية والتعميم المفرط:** يفترض المنهج أن التغير اللغوي منتظم وحتمي إلى حد كبير (مبدأ الانتظام الصوتي)، بينما في الواقع قد تكون هناك عوامل اجتماعية ونفسية ومعرفية معقدة تؤثر في مسار التغير وتجعله غير منتظم دائمًا.

المنهج التاريخي في ضوء اللسانيات الحديثة:

أما في السياق المعاصر،فقد تجاوزت اللسانيات الجدال القديم بين التزامني وتاريخي. فلم يعد المنهج التاريخي يُنظر إليه على أنه المنهج الوحيد أو المهيمن، بل أصبح فرعًا متخصصًا ومتكاملًا مع غيره من المناهج. لم تحل الدراسات التزامنية أو التوليدية محل الدراسات التاريخية، بل وسعتها وأضافت إليها أبعادًا جديدة.

١. **التكامل مع مناهج أخرى:** يتم اليوم دمج المنهج التاريخي بشكل مثمر مع مناهج أخرى مثل:

· اللسانيات الاجتماعية: تدرس كيف تنتشر التغيرات اللغوية عبر الطبقات الاجتماعية والمجموعات المختلفة، مما يفسر "كيف" و"لماذا" ينتشر التغير وليس فقط "ماذا" تغير.

· اللسانيات المعرفية: تحاول فهم الدوافع العقلية والإدراكية وراء تغير المعاني والتراكيب النحوية.

· علم اللغة التاريخي للاتصال: يدرس تأثير احتكاك اللغات وثنائية اللغة على التغير اللغوي.

٢. **اللغويات التاريخية والحاسوب:** أدخلت الحواسيب تقنيات إحصائية ومعالجة بيانات ضخمة (اللغويات الحاسوبية) لمساعدة الباحثين في اختبار فرضيات القرابة اللغوية وإعادة البناء على نطاق أوسع وأدق، ومحاكاة انتشار التغيرات.

٣. **الاستمرارية والأهمية المستمرة:** ما يزال المنهج التاريخي هو الوسيلة الأساسية لفهم تطور اللهجات المحلية، **وتاريخ المفردات (علم الاشتقاق)**، وتفسير الشواذ النحوي والصرفي الذي لا يمكن فهمه إلا بالعودة إلى مراحل أقدم من اللغة. كما يظل أداة لا غنى عنها في فك رموز النصوص القديمة واللغات المنقرضة.

باختصار، إذا كانت اللسانيات التزامنية تدرس "تشريح" اللغة في لحظة زمنية، فإن اللسانيات التاريخية تدرس "فسيولوجيا" اللغة و"تطورها" عبر الزمن. وكلا المنظورين ضروري لفهم الظاهرة اللغوية في كليتها وتعقيدها. لقد وضع المنهج التاريخي حجر الأساس لعلم اللغة الحديث، وما يزال يمثل مجالًا **حيويًا** يثري معرفتنا باللغة ككائن حي، متغير، ومعقد، ويظل شاهدًا على عطاء العقل البشري في سبر أغوار أهم ميزة إنسانية.

والخلاصة يظل المنهج التاريخي أحد أهم وأعرق مناهج البحث في علم اللغة ، وأحد أعظم إنجازات الفكر العلمي في القرن التاسع عشر. لقد نجح في نقل الدراسة اللغوية من دائرة الوصف الانطباعي والفلسفي إلى حيز العلم القائم على الملاحظة الدقيقة والمقارنة المنهجية واستخلاص القوانين القابلة للاختبار. لقد قدم إجابات مقنعة عن أسئلة جوهرية تتعلق بأصل اللغات وقرابتها والمسارات التي سلكتها عبر تاريخها الطويل، مظهرًا أن اللغة كائن حي ديناميكي يتغير وفق قوانين طبيعية.